رأي المستشرق الألمانيّ فولف ديتريش فيشر

في تطور أساليب الكتابة العربية ومسائل لغوية شتى

في حوار مع د. ظافر يوسف*

مقدمة وتعريف:

الأستاذ (البروفيسور) فولف ديتريش فيشر[1] Wolfdietrich

---

(١) وُلد في عام ١٩٢٨ في مدينة نورنبرغ بمقاطعة بافاريا، وحصل على درجة الدكتوراه في عام ١٩٥٤ من جامعة إرلنغن بإشراف الأستاذ (البروفيسور) هانس فير، مؤلِّف المعجم المشهور «معجم اللغة العربية المعاصرة (عربي – ألماني)». وكانت أطروحته بعنوان «صيغ أسماء الإشارة في اللهجات العربية المعاصرة». وفي عام ١٩٦٢ نال درجة الأستاذية بأطروحته التي قدَّمها بعنوان «الألوان ومواصفات أشكالها في الشعر العربي القديم»، ثم أصبح مديراً لمعهد الدراسات الشرقية واللغات السامية في جامعة إرلنغن في عام ١٩٦٤، وبقي في هذا المنصب حتى أحيل على التقاعد في عام ١٩٩٥. انتخب في عام ١٩٩٤ عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وقد بلغت مؤلَّفاته أكثر من /١٣٠/ عملاً علمياً، ما بين كتاب وبحث ومشاركة ومحاضرة، وأشهرها: كتاب «نحو اللغة العربية الكلاسيكية» (طبعة فيسبادن ١٩٧٢)، وكتاب «تعليم لغة الكتابة العربية المعاصرة»، جزآن (عدَّة = =طبعات)، وكتاب «اللهجات العربية» بالاشتراك مع أوتو ياسترو (طبعة فيسبادن، ١٩٨٠)، وكتاب «الأساس في فقه اللغة العربية» (جـ١، ١٩٨٢، وجـ٣، ١٩٩٢) وغيرها.

Fischer أحد أبرز المستشرقين الألمان المعاصرين، وهو يتمتع بشهرة واسعة في البلاد العربية والأوربيّة لغزارة أبحاثه في النحو العربي والشِّعر القديم واللغات السامية، ولإشرافه على دراسات عدد كبير من الطُّلاَّب العرب والأجانب.

وقد شغل منصب مدير معهد الدراسات الشرقية واللغات السامية في جامعة إرلنغن – نورنبرغ في مقاطعة بافاريا في جمهورية ألمانية الاتحادية لمدَّة تزيد على ثلاثين سنة، وهو معروف بحبِّه الشديد للغة العربية وتراثها، فضلاً عن إحاطته الموسوعيَّة بالكثير من الاتجاهات المتشعِّبة في دراسة اللغة العربية، على مبدأ العلماء العرب القدامى في الإلمام من كل علم بطرف.

والأستاذ فيشر يولي اهتماماً فائقاً لدراسة تطور العربية عبر العصور، وهو يدعو إلى تقسيم دراسة اللغة العربية إلى مراحل تاريخية[٢].وقد عكف بعد إحالته على التقاعد في العام ١٩٩٥ على المشروع الكبير الذي كان يعدّ له منذ سنوات طويلة، فتفرغ لدراسة الظواهر النحوية في اللغة العربية المعاصرة، ورصد الاستعمالات الجديدة فيها. ومن الجدير بالذكر أن هذا المشروع (الذي تموّله هيئة الأبحاث الألمانية، ويشترك فيه، فضلاً عن الأستاذ فيشر، فريق من الباحثين الآخرين) بدأ منذ عام ١٩٩٣، وقد يستغرق إنجازه سنوات كثيرة. وكان من حسن الطالع أن سنحت لنا هذه الفرصة للقاء أستاذنا الكبير،

(٢) انظر بحثه الذي أُلقي في المؤتمر الثقافي الثامن والعشرين ليوم الاستشراق العالمي في كانبرا في ١٩٧١/١/٧، ونشر في مجلة "Abr-Nahrain" عبر النهرين بمدينة ليدن، سنة ١٩٧١–١٩٧٢، العدد ١٢، ص١٥–١٨.

فكان هذا الحوار:

- هل لكم أن تحدِّثونا عن مشروعكم في نحو اللغة العربية المعاصرة والنتائج التي خلصتم إليها؟ وما الدافع الذي حدا بكم إلى القيام بمثل هذا المشروع؟

تعدُّ اللُّغة العربيَّة، بلا شك، من أهمِّ اللُّغات العالميَّة في عصرنا هذا، لا لأنّها لغة حيَّة معاصرة فحسب، وإنَّما لجذورها الضَّاربة في القدم وتاريخها الحافل والطَّويل، فنحن لا نجد في العالم كلِّه لغة واحدة من اللُّغات الحديثة المعاصرة يمكن أن تكون مثل اللغة العربيَّة في تاريخها الطويل وتراثها الحافل.

ومن خصائص اللغة العربيَّة أنَّ أبناءها حافظوا على لغتهم الفصحى على نحوٍ دقيق بفضل النَّص القرآنيّ وعلوم الدِّين المرتبطة به، وهذا هو الركن الأساسي في دعائم الثَّقافة العربيَّة الإسلاميَّة. ومع ذلك كان لابدَّ للتَّغيُّرات التَّاريخيَّة والاجتماعيَّة والثَّقافيَّة أن تؤثِّر في الواقع اللُّغوي تأثيراً مباشراً. فمن نافلة القول إن اللغة يجب أن تلبِّي حاجة أبنائها، وأن تواكب التَّطوُّرات على الصعيدين التاريخي والاجتماعي، انطلاقاً من وظيفتها في التَّعبير عن أفكار النَّاس وحاجاتهم اليوميَّة.

والواقع أننا اطّلعنا على الأبحاث والدِّراسات التي أعدَّت حتى الآن في مجال نحو اللُّغة العربيَّة، سواء أكانت لأبناء العربيَّة أم لغير النَّاطقين بها من المستعربين. فرأَينا أنٍ أكثر هذه الأبحاث والدِّراسات يُعنى بقواعد اللُّغة العربية

الفصحى، كما تعرضها كتب التُّراث التَّقليديَّة، في حين تندر الدِّراسات التي تعنى بنحو اللُّغة العربيَّة المعاصرة، وأعني بذلك اللُّغة التي تستخدم حاليّاً في الصحافة والكتابات اليوميَّة والحياة الثَّقافيَّة، وحتَّى في الأشعار التي تنظم في عصرنا هذا، وكأنَّ قيمة اللُّغة المعاصرة لا ترقى إلى القيمة العظمى التي تتمتَّع بها كتب التُّراث النَّحويّ، وإن كانت هناك ظواهر جديدة في اللُّغة المعاصرة لم تكن معروفة قبل قرنين أو أكثر.

وقد لا يحتاج من يكتب اليوم باللُّغة العربيَّة من أبنائها إلى وصف دقيق لقواعد هذه اللُّغة المعاصرة، لأنَّه تعوَّد على استخدامها في حياته اليوميَّة والثَّقافيَّة، بدءاً من دخوله إلى المدرسة وتعلُّمه القراءة والكتابة، ومروراً بمعايشته لهذه اللُّغة في جميع مواقفه الحياتيَّة، فلا تواجهه أيّ مشكلة حين يريد أن يكتب أو يتكلَّم بلغته، على العكس تماماً من الأجنبي الذي يتعلّم اللغة العربيَّة، ويقف أمام مشكلات كثيرة حين يريد أن يكتب بهذه اللُّغة الجميلة، ويبقى عاجزاً عن الوصول إلى روح اللُّغة العربيَّة المعاصرة وفهم خفاياها، لأنَّ كتب النَّحو المتوافرة والمعجمات الموجودة لا تساعدانه كثيراً.

وعلى هذا فقد قام بعض الباحثين الألمان في جامعة لايبزيغ في السنوات العشرين الأخيرة بعدة دراسات نحويَّة وصفيَّة لبعض ظواهر اللُّغة العربيَّة، التي تُستعمل اليوم في كتب الأدب الحديث والصُّحف اليوميَّة ومقالات الثَّقافة المعاصرة. ومن سوء الحظّ أنَّ أكثر هذه الدِّراسات لم يُنشَر حتَّى الآن، لأنَّ الظُّروف والإمكانات المتاحة في ألمانية الشَّرقيَّة آنذاك لم تكن مناسبة. وبعد

الوحدة الألمانيَّة خطر ببالي بالاشتراك مع بعض الباحثين مثل الدكتور هاشم الأيُّوبي من لبنان، والسَّيِّد لنغر من جامعة لايبزيغ، وعدد من المساعدين الآخرين أن نقوم ببحث نحويّ شامل ندرس فيه أهمَّ ظواهر اللُّغة العربيَّة المعاصرة انطلاقاً من الأساس الذي وضعته تلك الدِّراسات غير المنشورة. وقد أصبح واضحاً بعد أن بدأنا بحثنا أن هذه الدِّراسات تحتاج إلى المزيد من التعمُّق والاستقصاء، ولذلك فإنَّنا قمنا بتحليل نحويّ لعدد كبير من نصوص اللُّغة العربيَّة المعاصرة المنشورة بلغة النثر في البلاد العربيَّة المختلفة، كمجموعات القصص القصيرة والروايات والمقالات الثقافيَّة والعلميَّة والموادّ الصُّحفيَّة وغيرها، حتَّى نتمكَّن من القيام بوصف شامل ودقيق لنحو هذه اللُّغة. ولا نريد في بحثنا هذا أن نصف الظَّواهر التي تطابق نظائرها في لغة التراث، ولا أن نصف التَّراكيب الفصيحة أو غير الفصيحة، وإنَّما نريد أن نركِّز على ما هو المستعمل في اللُّغة اليوم وما هو غير المستعمل، ونقوم أيضاً بتحليل أساليب الكتابة في عصرنا هذا، مستخدمين المناهج الحديثة لعلم اللُّغة الوصفي. وما نهدف إليه في هذا المشروع النحويّ هو أن نتمكَّن من وضع كتاب شامل تُعالج فيه بعض التركيبات اللُّغوية والظَّواهر النحوية الجديدة وأساليب الكتابة في اللُّغة العربيَّة المعاصرة، فضلاً عن مسألة الاستعمال وعدم الاستعمال، والفروق في اختلاف أساليب الكتابة في البلاد العربيَّة المختلفة وأقاليمها المتعدِّدة، إن كان هناك اختلافات تعبيرية أو فروق محليَّة في مسألة تنوُّع أساليب الكتابة. وسيكون هذا الكتاب في عدَّة أجزاء، على الأرجح، وإن كنّا لا نريد أن نعالج كلَّ الأبواب

والظَّواهر الموجودة في النَّحو العربيِّ، لأنَّنا سنركِّز تركيزاً أساسياً على تحليل دقيق لبعض التركيبات النحوية والاستخدامات الأسلوبية التي تصادفنا في نصوص اللغة المعاصرة، وبيان معانيها الدِّلالية.

ـ أين تكمن برأيكم الصعوبات التي يعاني منها الدارس الأجنبي للغة العربية؟ وهل تعتقدون بأن النحو العربي صعب على الفهم؟

أستشهد في البداية برأي لأحد علماء اللُّغة يقول فيه بأنَّ كل اللغات صعبة بالقدر نفسه في نظر الأجنبي، الذي يريد أن يتقن لغةً إتقاناً تاماً أو يدرسها دراسةً دقيقة، وهذا يعني أنَّه ليس هناك لغة أصعب من غيرها، وتختلف الصُّعوبات التي تواجه المتعلِّمين في البداية من لغة إلى أخرى بحسب طبيعتها ونظامها النَّحوي، **فالصُّعوبة الأولى** التي تواجه الأوربيَّ الذي يتعلم اللغة العربيَّة تكمن في أصواتها وفي عمليَّة نطق الحروف الغريبة عنه تماماً، فضلاً عن عدم التَّفريق في اللَّفظ بين حروف الإطباق (التفخيم): الصَّاد والضَّاد والطَّاء والظَّاء، ونظائرها غير المفخَّمة: السِّين والدَّال والتَّاء والزَّاي، وكذلك في طريقة نطق الحروف الحلقيَّة غير الموجودة في لغته كالعين والحاء وغيرها.

وتعَدّ مبادئ الصَّرف **الصُّعوبة الثانية** في اللُّغة العربيَّة في نظر الدَّارس الأجنبيِّ، لأنَّها تختلف تماماً عمَّا اعتاد عليه في لغته الأوربيَّة، فالنِّظام الفعليُّ وتصريفاته، وكذلك صيغتا الماضي والمضارع، لا يمكن أن يستوعبها بسهولة، لأنَّها لا تشبه نظام التَّصريف الموجود في اللُّغات الأوربيَّة. ويحسُّ المتعلِّم المبتدئ بصعوبة حقيقيَّة عندما يريد التمييز بين صيغتي الماضي والمضارع، لأنه لا

يستطيع أن يربط بينهما، ويظنُّ في أحيان كثيرة أنَّهما تعودان إلى فعلين مختلفين. زد على ذلك أموراً أخرى كثيرة تقف في طريق الوصول إلى مفاتيح أسرار اللُّغة العربيَّة، مثل الأبواب الفعليَّة، وصيغها الصَّرفيَّة، والحركات التي تضبط بها عين الفعل المضارع وغير ذلك.

والصُّعوبة الثالثة تكمن في الثَّروة اللُّغويَّة العظيمة التي تزخر بها اللُّغة العربيَّة، فهناك كمّ هائل من المفردات الجديدة والمترادفات الكثيرة، يندر وجود نظير له في أي لغة أخرى. ويعاني الأجنبي الذي يتعلم اللُّغة العربيَّة هذا الأمر كثيراً، لأنَّ كلّ الكلمات التي تصادفه أثناء تعلّمها جديدة عليه، في حين يختلف الأمر تماماً، إذا أراد أن يتعلَّم لغة أوربيَّة جديدة، فهو يجد ظواهر متشابهة ومفردات كثيرة يعرفها من لغته، لأنَّ هناك قاسماً مشتركاً على الأقلّ في المفردات والألفاظ بينها وبين لغته التي يتقنها. زد على ذلك **صعوبة الخطّ العربيّ** الذي يختلف جذريّاً عن طريقة الكتابة الأوربيَّة. فإذا تغلَّب المتعلِّم على هذه الصُّعوبات، واستطاع أن يتجاوزها، فلا أعتقد أنَّه يحسّ بأنَّ اللُّغة العربيَّة أصعب من اللُّغات الأخرى.

أمَّا النحو العربيّ فإنَّني **لا أعتقد أنَّه صعب على الفهم**، لأنَّ طريقة تدريس اللُّغات المتَّبعة في جامعاتنا، ومنها اللُّغة العربيَّة، تعتمد على النِّظام التَّقليديّ الأوربيّ والمصطلحات اللاتينيَّة التي يتعلَّمها التلاميذ في المدارس، ولهذا السَّبب فإنَّهم لا يواجهون صعوبات في عمليَّة فهم النَّحو العربيّ، لأنَّه يقدَّم إليهم بالطَّريقة التي اعتادوها في لغتهم الأمّ. ولكن الصُّعوبة الحقيقيَّة التي

يعانونها تكون بعد الانتهاء من دراسة النحو العربيّ، لأنَّهم لا يستطيعون أن يطبِّقوا القواعد التي تعلَّموها عند قراءة النصوص العربيَّة وتحليلها، ولاسيَّما أنَّ أكثر النصوص العربيَّة المطبوعة **غير مضبوطة بالشكل**، وهذا ما يمثّل للوهلة الأولى **صعوبة كبيرة** في عملية اختيار الحركة الإعرابيَّة المناسبة أو يثير عند القارئ نوعاً من الشَّك والتَّردُّد على الأقلّ في عمليَّة إيجاد الضبط بالشكل المناسب للنصّ، ومن ثم لفهمه والتَّمكُّن من سبر أغواره واكتشاف الرَّوابط التي تجمع بين السياقات النحويَّة والجمل والتركيبات الموجودة في النص. **أمَّا قواعد النحو العربيِّ وقوانينه** بوجهٍ عامّ، فأعتقد أنَّها **واضحة والاستثناءات فيها قليلة**، مقارنة، على سبيل المثال، بقواعد اللُّغة اليونانيَّة القديمة التي تحفل بالاستثناءات الكثيرة.

– ما الأبواب والظواهر النحوية التي تحتاج إلى تجديد؟

إنَّ الجهود الجبَّارة التي بذلها النُّحاة العرب في سبيل وضع قواعد ناظمة للغة العربيَّة **لا مثيل لها بحقّ**. وأعتقد أنَّ الطَّريقة التي اتَّبعوها في عمليَّة وصف الظواهر اللُّغوية واستقراء تركيباتها كانت تعتمد إلى حدّ كبير على **الاستقصاء الدقيق، والتَّتبُّع الشَّامل** لاستخدامات العرب، ولهذا كانت **مطابقة للواقع اللُّغويّ وملبِّية لحاجاته، ولم تكن تنظيراتهم بعيدة عن الصواب أبداً، ولا مخالفة للأعراف اللُّغويَّة السَّائدة.**

ويستند النَّحو العربي في قواعده الضَّابطة إلى (نظرية العوامل) التي تقترب من بعض نظريات النحو الحديث، كنظرية تشومسكي مثلاً، لأنَّها

تحاول أن تفسِّر الظواهر النحوية والاستخدامات اللغوية تفسيراً منطقيّاً يستند في الغالب إلى أدلّة مقنعة، وافتراضات مشروعة. والواقع أنَّ تطوُّر النظريات النحوية لم يتوقَّف، فقد نشأت نظريات نحويَّة كثيرة في أماكن مختلفة من العالم، تحاول كلُّها أن تفسِّر الظواهر اللغوية والتركيبات النحوية الموجودة في كل لغة من لغات العالم. ومن الجدير بالذكر هنا أنَّ كلَّ هذه النظريات، على كثرتها، قد لا تكون مناسبة لتفسير جميع الظواهر اللغوية الموجودة في لغة معيَّنة. وأنها لا تساعد في أحيان كثيرة أيضاً على تعليم اللُّغة، وإيصال قواعدها النحوية بوضوح إلى المتعلِّمين. لهذا فإنَّه يصبح من واجب اللُّغويين والنحاة الذين يريدون أن يفسِّروا ظواهر لغة معيَّنة وأساليبها النحوية في عصرنا هذا، أن يختاروا من بين هذه النظريات ما يناسب لغتهم، فقد تناسب نظرية معيَّنة باباً نحوّياً محدَّداً، وقد تطبَّق نظرية أخرى على باب نحويّ آخر وهكذا، أي أنَّ لكل ظاهرة نحوية نظرية معيَّنة تناسبها أو منهجاً محدَّداً يمكن أن يطبَّق عليها.

أمَّا نظرية العوامل في اللُّغة العربيَّة فأعتقد أنَّها مناسبة، بلا ريب، لبعض الأبواب النحوية، فمسألة عمل الفعل –مثلاً– وما يتصل بها من أبواب الفاعل ونائب الفاعل والمفعول به، فضلاً عن المفعولات الأخرى كلها، يمكن أن تُقبل كما يعرضها النحاة العرب في إطار نظرية العوامل، ولأنَّها تقترب كثيراً من النظرية الحديثة التي تسمَّى نظرية (صاحبات الفعل) أو مرافقاته (Valenz-Theorie)، وتتلخَّص هذه النظرية بأنَّ لكل فعل عدداً خاصّاً من الصَّاحبات أو المرافقات التي تشترك معه في الوظيفة التي تقوم بها، وهي التي

توجّه المعنى المراد الوصول إليه، فمن هذه المرافقات مثلاً الفاعل والمفعول به والمفعول لأجله، والمفعول معه، والمفعولات الأخرى غير الموجودة في النحو العربيّ القديم، كالمفعول بالواسطة (Instrument)، والمفعولات التي يتم الوصول إليها عن طريق حروف الجرّ، وغيرها.

إنَّ ما يمكن أن يعرض عرضاً جديداً في النحو العربي هو موضوع (الاسم) الذي يدلّ على مسمّى يقع تحته، لأنَّ ما ينطبق على الفعل، لا يمكن أن ينطبق عليه من حيث الصَّاحبات والتَّأثير في ما بعده، ولا سيَّما أنَّ الاسم يمكن أن يكون محوراً أساسيّاً لمجموعة كبيرة من العناصر التي تقع قبله أو بعده، وتربطها به علاقات نحوية محدَّدة. وتسمَّى العناصر التي تقع قبل الاسم بالحقل السَّابق (Vorfeld)، والعناصر التي تقع بعده بالحقل اللاحق (Nachfeld). فمن العناصر التي تقع، على سبيل المثال، في الحقل السابق: أسماء الإشارة، وأسماء الاستفهام، وأسماء مثل: غير، ومثل، وكلّ، وجميع، وأيّ،.. إلخ. ومن العناصر التي نجدها في الحقل اللاحق: الأسماء الموصولة، والمضاف إليه، والتَّوابع والصِّفات والبدل،.. إلخ. فإذا طبَّقنا هاتين النظريتين على النحو العربي، كان لابدّ من إعادة النظر في ترتيب الأبواب النحويَّة ترتيباً جديداً يختلف عن الترتيب التقليديّ للنحاة العرب.

– هل هناك مؤثّرات أجنبية في النحو المعاصر؟ ومن أي طريق دخلت هذه المؤثّرات؟ وكيف السبيل لمعرفة مصادرها؟

يسود ميدان الدِّراسات النحويَّة في البلاد العربيَّة في أيَّامنا هذه اتِّجاهان

أساسيان، هما الاتجاه التَّقليدي الذي يعتمد مناهج النحاة العرب القدامى، ويحاول أن يسير في فلكها، فغالباً ما يتناول الدارسون فيه ظاهرة أسلوبية من استخدامات اللغة، أو باباً نحويّاً معيناً، فيقومون بجمع آراء النحاة التي تعالج هذا الجانب من كتب التراث، ويحاولون أن يوضِّحوها بالتفصيل بالأمثلة التطبيقيَّة التي يجمعونها من النصوص اللغوية وكتب الأدب. والاتجاه الثَّاني هو الاتجاه الذي يتخذ من المناهج الحديثة التي انبثقت من علوم اللغات الأوروبية والأمريكية واتخذت منها مثالاً يحتذى، وخاصَّة مدرسة تشومسكي التي دخل الكثير من أفكارها إلى النحو العربي الحديث، لاقترابها من أفكار النحاة العرب القدامى، إذ إنَّه من المعروف أنَّ والد تشومسكي كان متخصِّصاً بالنحو العبري الذي يعتمد أساساً على النحو العربيِّ، وأعتقد أن تشومسكي قد أخذ الكثير من أفكاره الحديثة في النحو العربي عن هذا الطريق، ثمَّ طوَّرها إلى نظرية لغوية جديدة. ولابد من الإشارة هنا إلى ملاحظة هامَّة، وهي أنَّ منهج تشومسكي في اللغة يقوم على أفكار نظرية بحتة، ولا يستطيع أن يفسِّر جميع الاستعمالات اللغوية وطرق التعبير المختلفة الموجودة في أيَّامنا هذه.

أمَّا مسألة المؤثِّرات الأجنبية في النحو المعاصر ودخول أساليب أو تركيبات نحوية جديدة إلى اللغة العربية المعاصرة، **فلا أستطيع أن أؤكِّدها**، لأنَّ النَّاس بوجه عامٍّ مازالوا حتَّى الآن يراعون في كتاباتهم القواعد النحوية الواردة في كتب التراث النحويِّ كما هي بحذافيرها، فليس هناك مثلاً من ينصب الفاعل أو يرفع المفعول أو يجرُّ المنصوب وما إلى ذلك. إلاَّ أنَّ هذا لا يمنع أبداً أن

تكون بعض الاستعمالات والعبارات الجديدة قد دخلت إلى اللغة العربية عن طريق التَّرجمة من اللُّغات الأوروبيَّة، سواء أكانت ترجمة أدبية أم ترجمة نصوص صحفية، أم غير ذلك.

وقد أدخل المترجمون مطابقات عربية لعبارات أجنبية كثيرة، مثل: «**لعب دوراً**»، أو «**هذا من جهة.. ومن جهة أخرى**»، أو عبارة «**من جديد**»، و«**ككلّ**» وغيرها. وأكثر هذه العبارات تخصُّ المعجم وليس النحو، ولابدَّ من الإشارة هنا إلى نقص البحوث التَّاريخيَّة في اللُّغة العربيَّة، أي البحوث التي تؤرِّخ لمعاني المفردات الموجودة في الجذر اللغوي والتطوُّرات التي طرأت عليه وعلى دلالاته، فكثيراً ما يعتقد المرء أن هذه العبارة محدثة أو دخيلة من اللغات الأوروبيَّة، ولكنَّه سرعان ما يكتشف مع مرور الوقت بأنَّها واردة في النصوص اللغوية القديمة ومستعملة عند العرب.

إنَّ الجواب الدقيق عن هذا السُّؤال يحتاج إلى بحث شامل، وإجراء دراسة مفصَّلة تبدأ بجمع مفردات النصوص العربية في كل مرحلة زمنية من المراحل التي مرَّت بها اللغة العربية، ثمَّ برصد التَّطوُّرات الدلالية التي طرأت على معانيها والتَّأريخ لها ولاستعمالاتها، وهذا ما تفتقر إليه اللغة العربية تماماً. وكما أشرت قبل قليل، فإنَّ الميدان المعجمي هو الذي نجد فيه أكثر الألفاظ المحدثة، لأنَّ الأشياء الجديدة تحتاج إلى ألفاظ جديدة مناسبة، وقد جرت العادة في أكثر لغات العالم أن تدخُل الكلمات الجديدة إلى اللُّغة المحكيَّة بلفظها الحرفي أو القريب منه أوَّلاً ثمَّ تنتقل بمرور الزَّمن إلى لغة الكتابة أو يستبدل بها كلمة

أصيلة من اللغة نفسها، فكلمة «**الباص**» مثلاً أصبحت تستخدم في بعض الدول العربية وكأنَّها عربيَّة فصيحة، في حين أنَّ استعمال كلمة «**الحافلة**» عربية الأصل تراجع تماماً ليقتصر على المغرب فقط، وهذه ظاهرة طبيعيَّة في كلِّ لغات العالم.

وكذلك كان الحال في العهود السابقة، فقد دخلت كلمات كثيرة من اللغات اليونانية والفارسية والتركية إلى اللغة العربية، وأصبح كثير منها جزءاً من الرَّصيد الحقيقي للثروة اللغوية العربية، فكثير من الكلمات اليونانية التي دخلت عن طريق الترجمة في العصر العباسي إلى اللغة العربية، مثل:«**الديمقراطية**» و«**الجغرافية**» وغيرها، مازالت تستعمل في أيَّامنا هذه وكأنَّها أصيلة في العربية. وهذا يسري طبعاً على عدد كبير من الكلمات التي دخلت إلى العربية من اللغة الفارسية سواء أكان ذلك قبل الإسلام أم بعده، مثل: «**تاج**»، و«**ورد**»، و«**نموذج**»، و«**برنامج**» وغيرها كثير ممَّا يستعمل في وقتنا الحاضر وكأنَّه عربيّ متأصِّل، في حين لم يكتب الذيوع والانتشار لعدد آخر من الكلمات الدخيلة، فبقيت متناثرة في كتب التراث، بعيدة عن التداول والاستعمال.

– هل وجدتم اختلافاً كبيراً بين تركيبات اللغة المعاصرة وتركيبات لغة التراث القديمة؟ وبماذا يتميّز برأيكم نحو اللغة المعاصرة عن النحو التراثي؟ وهل هناك ظواهر نحوية جديدة لم تكن موجودة في كتب التراث؟

إنَّ تركيبات اللغة المعاصرة لا تختلف اختلافاً كبيراً عن تركيبات عربية

العصور القديمة، **لأنَّ القواعد النحوية فيها بقيت ثابتة، ولم تتغيَّر ضوابطها ونُظُمها الإعرابية بمرور الزمن**، فمازال الفاعل مثلاً مرفوعاً، والمفعول به منصوباً، والحال منصوبة، وقواعد العدد وأسمائه هي نفسها منذ الأزل. ولكن الملاحظ أن الكُتَّاب المعاصرين يميلون في كتاباتهم إلى البساطة واختيار العبارات الواضحة البعيدة عن الغموض والتعقيد، على العكس تماماً من العرب القدامى الذين كان أسلوبهم يتصف بشيء من التعقيد بالقياس إلى أساليب المعاصرين. وهذا ما جعل فهم المعاني التي يرمون إليها أصعب، في بعض الأحيان، من فهم المعاني في أساليب المعاصرين. فالكُتَّاب المعاصرون يكثرون، مثلاً، من استخدام عبارة «**بصفته كذا**» أو «**بوصفه كذا**» أو «**باعتباره كذا**»، كقولهم على سبيل المثال: «زار فلان ألمانية **بصفته** رئيساً للوزراء» بدلاً من الحال التي كان يستخدمها القدماء في مثل هذه المواضع. وكذلك استخداماتهم الكثيرة لعدد من المنصوبات الجديدة التي أصبحت شائعة في العربية المعاصرة، مثل قولهم: «**ابتداءً من السَّاعة الثَّامنة**» بدلاً من قولهم: «**من السَّاعة الثَّامنة**»، وكقولهم: «**بناء على**» و«**انطلاقاً من**» و«**وصولاً إلى**» و«**انتهاءً بـ**» و«**استناداً إلى**»، وغيرها كثير ممَّا لم يكن منتشراً بهذه الغزارة في أساليب القدماء التي كانت تقتصر على استخدام مجموعة محدَّدة من الأسماء المنصوبة مثل الألفاظ: أيضاً، وخاصَّة، وعامَّة، وكافَّة، وقاطبة..إلخ.

وفي اللغة المعاصرة أيضاً استخدامات جديدة **لأفعال مساعدة** تستعمل مع المصادر لتعطي معنى فعل المصدر المراد التَّعبير عنه، وهذا لم يكن مألوفاً في

القديم، كقولهم: «**قامَ بزيارة**» و«**قامَ بكتابة**» و«**قامَ بعمل**» بمعنى «**زَارَ**» و«**كَتَب**» و«**عَمِلَ**»، وكقولهم: «**تمَّ توقيعُ الاتِّفاقية**» بمعنى «**وُقِّعتِ الاتِّفاقيَّةُ**» وهكذا. زد على ذلك أنَّ استخدامات حروف الجر وظروف الزمان والمكان قد زادت في اللغة المعاصرة زيادة تلفت النظر، مثل: **تِلْقَاءَ، وإزَاءَ، وقَصْدَ، ونَحْوَ، وتُجَاهَ، ولِقَاءَ، ومُقَابلَ**.. إلخ.

ومن السِّمات المميزة للعربية المعاصرة كثرة الأمثلة التي يأتي فيها مضاف إليه واحد لاسمين مضافين أو ثلاثة، كقولهم: «**ملوكُ ورؤساءُ الدُّولِ العربيَّة**» أو «**أساتذةُ وطلاَّبُ الجامعةِ**» بدلاً من «**ملوكُ الدُّولِ العربيةِ ورؤساؤها**» أو «**أساتذةُ الجامعةِ وطلاَّبُها**». ومع أنَّ مثل هذه الاستخدامات كانت معروفة في القديم، إلاَّ أن قواعد النحاة الصَّارمة لم تسمح بانتشارها، وفي عصرنا الحالي يقلُّ الاهتمام بمثل هذا النوع من الدراسات التي يجب أن تشير إلى أنَّ الاسمين المضافين ينبغي أن يكونا متجانسين ومن فصيلة متشابهة، ولذلك فإنَّه لا أحد يقول مثلاً: «**كتبُ وبيوتُ الجامعةِ**».

ومن ظواهر اللغة العربية المعاصرة أيضاً كثرة استخدام التَّعابير المضافة، مثل: **جزيلُ الشُّكر، وفائقُ الاحترامِ، وعظيمُ المهابةِ، وكثيرُ المنفعةِ، وكريمُ النفسِ، وأطيبُ التَّمنِّياتِ وغيرها**. وكذلك كثرة استخدام نوع جديد من التَّعابير التي تبدأ بمثل: **إذ إنَّ، حيث إنَّ، كما أنَّ، بما أنَّ، فيما أنَّ**.. إلخ، فضلاً عن ورود «**كما**» بمعنى واو العطف نحو: «كتب كتاباً في العروض، **كما** كتب كتاباً آخر في أوزان الشِّعر»، وهذا كله لم يكن مألوفاً في القديم.

إنَّ ما تفتقر إليه العربية فعلاً، هو نقص الدِّراسات التَّاريخيَّة والإحصائية

التي تعالج تاريخ الاستخدامات النحوية وطرق التَّعبير اللغوية والظواهر الأسلوبية، فنحن لا نعرف مثلاً متى استُخْدِمَتْ مثل هذه التعابير الآنفة الذكر للمرَّة الأولى، مع أنَّها تسرَّبت بالتَّأكيد إلى أقلام بعض الكتَّاب في القديم. ونحن لا نعرف أيضاً متى استُخْدِمَتْ الأداة «**عِنْدَمَا**» بمعنى «**حِينَ**» للمرَّة الأولى، ويرجَّح أنَّ استخدامها قد ظهر في القرن الخامس أو السادس للهجرة، لأنَّها بالتَّأكيد لم ترد بهذا المعنى في نصوص الجاهليَّة وصدر الإسلام. ولا نعرف أيضاً إن كان قد ورد في النصوص القديمة استخدام لنقل الكلام المباشر « Indirekte Rede» نحو: «سألني أخي: متى ستأتي إلينا؟»، ولا متى ظهر مثل هذا الاستخدام للمرَّة الأولى، مع أنَّ البحث عن مثل هذه التطوُّرات في اللغة واستعمالاتها مهمٌّ جدّاً.

-كيف يمكن تجديد النحو العربي وجعله مناسباً لروح العصر ومفهوماً من الجميع؟ وهل تعتقدون أن الخلل يكمن في طريقة تدريس النحو في البلدان العربية؟

لاشكَّ أنَّ أبواب النحو العربيِّ والموضوعات التي يعالجها كثيرة جدّاً، ولا يخطئ أبداً من يشبِّه النحو العربي بالبحر المترامي الأطراف، لأنَّ القضايا والقواعد التي يتطرَّق إليها تتعذر الإحاطة بها بسهولة، خاصَّة إذا أخذنا بالحسبان كثرة آراء النُّحاة وخلافاتهم حول بعض المسائل الإعرابية والنحوية والصَّرفية.

إنَّ ما يجب ألاَّ يغيب عن الأذهان أنَّ النَّحو العربيَّ استند في نشأته على القرآن الكريم والشِّعر العربيِّ القديم. وقد كان لهذا الأمر فضل أساسي في المحافظة على المعايير النحويَّة التي وضعت لضبط الاستخدامات اللغويَّة وتوجيهها، فبقيت القواعد لذلك ثابتة ولم تتغيَّر على مرِّ الزَّمن، ولهذا السَّبب

فإنَّني **لا أعتقد أنَّ النَّحو يتطوَّر، وإنَّما أساليب الكتابة هي التي تتطوَّر** وتتغيَّر فقط، وهذا ما نجده بوضوح عندما نقارن بين النصوص اللغوية التي كتبت في مراحل زمنية مختلفة، فمثلاً تختلف أساليب النُّصوص التي كتبت في أوائل العصر العبَّاسي عن أساليب النُّصوص التي كُتبت في العصر المملوكي أو العثماني، وتختلف نصوص النثر التي كُتبت في القرون الأولى للهجرة، كنصوص ابن المقفَّع مثلاً أو الجاحظ، عن نصوص النثر المعاصرة تماماً.

أمَّا عمليَّة تدريس النَّحو العربي وطرائقه، فإنَّني أعتقد أنَّه يجب **التَّمييز بين مستويات دارسي النحو العربي**، فلا يُمْكِنُ، على سبيل المثال، أن يدرس التَّلاميذ في المدارس القواعد نفسها التي يدرسها طلاَّب قسم اللغة العربيَّة في كليَّة الآداب، خاصَّة إذا عرفنا أنَّ بعض الأمثلة والشَّواهد النَّحويَّة التي يُستشهد بها تعالج ظواهر خاصَّة بقبائل معيَّنة واستعمالات نحوية محدَّدة لم تعد مستعملة بكثرة في عصرنا الرَّاهن كأبواب التَّحذير والإغراء، وما الحجازية، ولات وإعمالها عمل ليس، والتَّأويل والتَّقدير، والتَّنازع والاشتغال، والنَّصب على الاختصاص، وغيرها من الأساليب النحوية القديمة.

ومن الضَّروري جدّاً مراعاة مسألة الاستعمال عند تدريس قواعد النحو العربيّ، فيجب أن تدرَّس القواعد الأساسيَّة المستخدمة بكثرة لتلاميذ المدارس، في حين تُترك المسائل المعقَّدة والظَّواهر النادرة لأصحاب الاختصاص في الجامعات. وأعتقد أنَّ طريقة تدريس النحو العربيّ هي مسألة تربوية مهمَّة جدّاً، وفيها يكمن التَّجديد، إذ من غير الممكن أن يبدأ التَّلاميذ بتعلُّم المبادئ والقواعد النحوية قبل أن يجيدوا قراءة النصوص اللغوية بطلاقة، ويتمرَّسوا في التمييز بين الصيَغ والأشكال اللغوية المتشابهة الموجودة في النَّص. ولابدَّ من الإشارة هنا إلى ضرورة اختيار النصوص الجيِّدة التي تجتذب انتباه التَّلاميذ،

وتشدُّهم إلى قراءتها بشغف، فلا يشعرون بأنَّهم يقرؤونها من أجل تعلُّم النحو منها. إنَّ أسوأ طريقة لتدريس النحو هي تلك التي تبدأ بسرد القواعد مجرَّدة، كقولهم مثلاً في توضيح أقسام الكلام بأنَّه يُقسم إلى اسم وفعل وحرف، لأنَّ التِّلميذ لا يمكن أن يستوعبها بسهولة، ولا أن يفهم المقصود منها، إن لم يجد أمثلة غير مباشرة لهذه المصطلحات في النصوص التي بين يديه.

– أشكر لكم تفضلكم بالإجابة عن هذه الأسئلة.